

## تشكلات المكان في رواية (الياطر) لحنا مينه

د.متقدم الجابري

جامعة باتنة 01

ملخص:

ارتبط الانسان منذ أن وعى إنسانيته بالمكان الذي وجد فيه ، ونشأت بينهما ألفة كان لها دور كبير في تشكله الفكري وفي بناء وعيه الاجتماعي ، وتطبع الانسان بطباع المكان الذي عاش فيه واكتسب سلوكات كان للمكان دور في تحديدها ، وتهدف هذه الدراسة إلى تبيان أهمية المكان في رواية الياطر لحنا مينه حاولت من خلالها أن ارسد مدارات الأمكنة (المدينة، الغابة، البحر) ودورها في رسم مسارات الشخصيات داخل الرواية ، وتأثير كل منها في التعبير عن هموم وتطلعات هذه الشخصيات ، وقدرة حنا مينه على استنطاق هذه الامكنة وبعث الروح فيها لتصبح كائنا حيا تحاوره هذه الشخصيات ، وتتبادل الأدوار معه في بناء الأحداث.

## Abstract

Conscient de son humanité , L'homme a été toujours lié par l'espace qui détermine sa conscience sociale et la spécificité de sa pensée . ceci démontre la surdétermination de l'être humain par les paramètres de l'espace . Cette étude tente de démontrer l'importance de l'espace dans le roman de Hanna mina.

Il est question d'examiner le rôle important des différentes strates de l'espace : ( la ville , la forets , la mer ...etc.) , on examinera également l'influence de ces espaces sur le parcours des personnage et sur leurs destinées a l'intérieur du roman . on analysera aussi la capacité de l'auteur a insuffler dynamise et vie a ces espace particulièrement riches en significations . Ainsi , l'espace devient un être vivant aux capacités infinies d'échange et de communications avec les personnage et les composantes du récit et des événements

أهمية المكان وعلاقته بالمضمون الروائي:

لقد حظي المكان في الآداب العالمية بأهمية كبرى نظرا لارتباطه بالشخصيات المسرحية والروائية والشعرية وكذلك بالأحداث التي لها علاقة وثيقة بالزمان والمكان، فلا يخلو المسرح الإغريقي والرومان من أهمية المكان ودوره الرئيس في بنائه الفني والجمالي وفي تأثيره المباشر في أحداث المسرحية ، كما عرف الشعر الملحمي أهمية كبيرة لدور المكان في بناء الأحداث التي تدور حولها هذه الملاحم ؛ حقيقية كانت أم متخيلة ولنا في ملاحم اليونان والرومان والهنود والفرس أكبر دليل على ذلك .

كما نال المكان في الشعر العربي القديم حظوة كبيرة وبخاصة ما تعلق بالمقدمات الطلبية ووصف الطبيعة في العصر الجاهلي ، إذ حملت الأمكنة في القصيدة العربية دلالات عميقة تماهى فيها المكان مع المرأة في جدلية البقاء والفناء ، فالجمع بين المكان والمرأة حوّل المكان إلى رمز للفناء والدمار في حين ترمز المرأة الى الحياة والتجدد ، وهو إحساس عميق بالمصير الإنساني يعبر من خلاله عن شعور الجماعة التي ينتمي إليها بالحرمان من الوطن والنزعة الدفينة إلى الاستقرار . ولم يحظ المكان بهذه الأهمية في السرد العربي القديم على قلته إلا ما جاء في بعض المقامات العربية القديمة التي جاء فيها ذكر الأسواق والمجالس والمنتزهات والبيوت والمساجد والقصور ، وما كان يدور فيها من أحداث أثرت ذاكرة المكان في هذه المقامات . وفي العصور المتأخرة بعد ظهور القصة والرواية بتقنياتها الحديثة وبنائها الفني أصبح المكان يشكل فيهما عاملا مهما لا تكتمل الرواية والقصة إلا به ، فهو الركن الأساس في بناء النص ، بل هو المحور الذي تتحلّق من حوله مدارات الإبداع ، فواقعية المكان واقعية لغوية لا تعني واقعية عالم الطبيعة ، لأنه ينهض بوظيفة بنائية دلالية وجغرافية تشكلها حركة الشخوص فيها ، فالطابع اللفظي فيه يجعله

يحتوي كل المشاعر والتصورات التي تستطيع اللغة التعبير عنها "تقيمه الكلمات انصياغا لأغراض التخيل وحاجته فالمكان إذن مجموعة من الأساليب اللغوية المختلفة والمختلقة في النص" (1)

لذلك فالحديث عن أهمية المكان لا يمكن أن نحصره في مكان دون آخر، وذلك لأن دور الأمكنة يتداخل فيما بينها، فتنمهي فيما بينها وتتحطم الحدود، وتتكشف لنا أمكنة جديدة متخيلة تماثل الأمكنة الحقيقية، وذلك بتسارعها إلى ذهن القارئ لتقنعه بحقيقة وجودها، "فالراوي يحاول تقديم إشارات جغرافية تشكل نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، ومن أجل تقديم استكشافات منهجية للامكان" (2)، وغالبا ما يأتي وصف الأمكنة في الروايات الواقعية مهيمن، بحيث نراه يتصدر مكونات الرواية ويغطي حيزا كبيرا من بنائها السردي، تشع بالدلالة الرمزية التي يشحنها بها المؤلف، فلا تصبح العلاقة بين وصف المكان والدلالة علاقة تبعية وخضوع "بل أن الاختلاف الموجود بين وصف الأمكنة في رواية يسمح أحيانا بإقامة دراسة سيميولوجية فعلية ولقد نبه "رولاند بورنوف" إلى القيمة الرمزية والأيدولوجية المتصلة بتجسيد المكان، وإلى ضرورة هذا الجانب، واعتباره وجها من وجوه دلالة المكان" (3)

فالمكان في الرواية غيره في الواقع فهو فضاء متخيل يحرك فيه الروائي شخصوه وفقا للأدوار التي يرسمها لهم داخل النسيج الروائي، محملا إياهم فيها الشحنات الرمزية ذات الحملات الأيدولوجية. فحضور المكان في العمل الروائي لا يؤدي دور الإيهام بالواقع فقط، فهذا الأسلوب اعترى الرواية الواقعية التي اهتمت كثيرا بالتصوير الواقعي حتى تكون الفكرة أقرب إلى وجدان المتلقي، لأنها تهتم بقضايا الإنسان الواقعية وتشاركه همومه، ولا تبحث رؤيته للعالم لأنه بالنسبة إليها ترف فكري لا يلامس مشكلات الإنسان الحقيقية، وهذا الاتجاه نفسه يخلق أيضا أمكنة متخيلة تؤدي الدور نفسه وتمارس على القارئ تأثيرا مشابها رغم عدم واقعيتها الفعلية، "فالمكان داخل هذه الروايات يجعل بعض النقاد يعتقدون أن المكان هو كل شيء، في الرواية، وكما يبين لنا قول "هنري متران" عن أن المكان داخل الرواية بعيد عن أن يكون محايدا نراه يعبر عن نفسه من خلال أشكال متفاوتة، ويكسب معاني متعددة إلى الحد الذي نراه أحيانا يمثل سبب وجود النتائج نفسه" (4).

أما في بعض الروايات التي لا يشكل فيها المكان دورا بارزا فهي روايات تيار الوعي التي تأثر فيها أصحابها بما كتبه الفيلسوف الأمريكي ويليام جيمس في كتابه مبادئ علم النفس سنة 1890 للدلالة على انسياب التجارب النفسية داخل الإنسان، وجسدها جيمس جويس (James Joyce) في روايته يوليسيز (Ulysses) (5) التي يستغل فيها منهج تداعي المعاني ف: "روايات تيار الوعي لا يكتسب فيها المكان الموصوف أهمية كبيرة لذلك فهو نادر الوجود وإنما يقتصر الروائي في الغالب على الإشارات الخاطفة للمكان ومن خلالها يتأسس بالضرورة فضاء روائي تكون له أهمية بالغة" (6). لأنه يحدد لنا الإطار العام الخالي من التفاصيل وهو الإطار الذي كانت تجري في الأحداث الروائية. وهنا مينة كان يقدم الشخصيات الواقعية في حياتها البسيطة وصراعها اليومي كتفاصيل في لوحة اجتماعية دون البحث عن جانب محدد في داخل تلك الشخصيات تتميز بها عن غيرها ليسلط الضوء عليه ويقدمه بتفرده ووحدايته.

والتلاعب بصورة المكان في الرواية يمكن استغلاله إلى أقصى الحدود، فإسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المؤلف كديكور أو كوسط يوطر الأحداث. إنه يتحول في هذه الحالة إلى محاور حقيقي ويقتحم عالم السرد محررا نفسه من أغلال الوصف.

نستنتج من هذا كله أن تكون الفضاء الروائي (المكان) ليس مشروطا على الدوام بوجود مقاطع وصفية مستقلة مسهبة للأمكنة في الرواية، إن هذا الفضاء يتأسس دائما من خلال تلك الإشارات المقتضية للمكان والتي غالبا ما تأتي غير منفصلة عن السرد ذاته، ولعل هذه المسألة تؤكد لنا أهمية التمييز النسي الذي حاولنا أن نقيمه بين المكان والفضاء.

تشكلات المكان: لا يشكل المكان الوعاء الروائي فحسب بل يؤدي دوره في العمل كأى ركن آخر من أركان الرواية ويخضع من يفترض أنه تكوين جامد أو محايد، فالمكان هوية العمل الأدبي الذي إذا افتقد المكانية يفقد خصوصيته وتاليا أصالته. فالروائي لا يتعامل مع المكان كحيز جغرافي ولكنه في نظره حيز إنساني ينقل من خلاله هموم الإنسان وقضاياه، فالقدس ليس مكانا موصوفا فقط تعدد زواياه وأبنيته وفضاءاته، وليس حيزا جغرافيا أسيرا، بل هو قضية تقنات من افئدة المسلمين وتعيش في وجدانهم.

إن المتصفح لروايات حنا مينه يجد للمكان حضورا طاغيا سواء ما تعلق بالمدن التي ارتبطت بذكرات سعيدة في حياته، أو التي صارت منفاه وارتبطت بذكرات مؤلمة بقيت محفورة في ذاكرته، وعلاقته كذلك بالبحر الذي يغطي مساحة كبيرة من متنه الروائي فأغلب رواياته مبللة بمياه البحر كما جاء في حواراته الكثيرة، وكذلك جاء ذكر الغابة معبرا من خلالها عن نزعة رومانسية دفيئة ارتبطت بطفولته وأصبحت له ملاذا من قهر المدينة، وعلاقة المكان بحنا مينه علاقة وجدانية وبخاصة المدن الساحلية التي جاء ذكرها في رواياته فلقد حدد "حنا مينه" أحيانا الأمكنة بوضوح فسمى "اسكندرونة" "اشقر ضاغ" "بيروت" "تركيا" "خمارة زخريادس" .. وأحيانا أخرى أطلق تسميات مواربة مطاطة "كالبحر" "الغابة" "المدينة" ... ويمكن للقارئ كذلك أن يلحظ بسهولة مدى هيمنة الدور الذي يؤديه البحر في روايات "الياطر" و "حكاية بحار" و "المصاييح الزرق" لأن البحر هو مصدر إبداعه و مصدر إلهامه. وبغض النظر عن التصنيف الذي يمكن أن نقيده به المكان سنحاول البحث عن الدلالات والرموز التي حملتها هذه الأماكن عند الراوي وعند الشخصية في الرواية.

أولا: المدينة: للمدينة دور فعال في تشكل إحساسات الفرد وانفعالاته منذ طفولته، فهي الحاضن الأكبر الذي يضمه وتتولد من خلاله علاقة حميمة تقوم على تفاعل مستمر بينهما، فلم تعد المدينة مجرد إطار هندسي تتواجد فيها الشخصية كمكون من مكوناتها، بل أصبحت تؤثر فيها وتحركها وتدفعها إلى تغيير سلوكياتها بحسب ما يطرأ عليها من قيم تحكم سلوكيات الأفراد والجماعات، فلا يمكن للشخصية أن تفلت من سطوة المدينة، فهي التي ترسم لها صورة مستعارة منها.

تشكل مدينة اسكندرونة<sup>(\*)</sup> "مدينة حنا مينه" الانتماء وبخاصة (حارة المستنقع) التي عاش فيها طفولته وأرخها برواية تحمل اسمها، ولواء الأسكندرونة\* مدينة تقع على الساحل السوري جاء ذكرها كثيرا في رواياته فهي خزان ذكرياته ومهد طفولته وشبابه أحبها بكل ما فيها من تناقضات، و مثلما أحبها ونثر في شوارعها عمره وذكرياته، فهي كذلك عنده مدينة مجنونه ومقبرة ومنفى، يدعوها بالعاهرة " وحين تسحبون شباككم، وتجمعون الخير في سلالكم وتمضون إلى مدينتنا سلموا لي عليها. قولوا لها إنها عاهرة. وإنني أحبها ولو كانت عاهرة"<sup>7</sup> ويلعننا في قوله " وأهل المدينة بطاردوني كلهم .... حتى انتهيت إلى الشاطئ ورحت أسير عليه، هائما، لا وجهة محددة لي، لا هدف ..... لعنت في سري المدينة والحوت .."<sup>8</sup> إلا أنها على الرغم من جفافها تبقى تعيش في وجدانه، فمهما دفعته الظروف إلى الهجرة دائما قريبة منه لأن "علاقة الكاتب بمدينته بالمدينة الأولى علاقة خاصة استثنائية في آن واحد إذ مهما ابتعد لابد أن يعود إليها وهذه العودة تتمثل بأشكال عديدة، إنها المبع الذي يمتد في أعماقه ويمنحه باستمرار مادة للكتابة والذكرى ويبدو أن المدينة الحلم كلما ابتعد جغرافيا أصبحت أقرب إلى الكاتب"<sup>9</sup>، فمينه يحلم دائما بالعودة إلى المدينة ويحن إلى أزقتها وميادينها والأماكن التي كان يتردد إليها، فالدلالة التعبيرية للمكان لا تبقى في حدودها الجغرافية وبما نحت في الذاكرة من صور لها، فذاكرة الإنسان تحوي بداخلها أمكنة تقوم باستحضارها كلما أحست بالضيق والغربة، وللاسكندرونة - في نفس حنا مينه - وقع خاص فهي المدينة الغامضة التي لا تكشف أسرارها لكل إنسان ولكن فقط لمن أحبها، وهو قد أحبها على الرغم من قسوتها عليه "وعندئذ تتذكر مدينتي أن رجال البحر الذين تلحق بهم الأذى والعار هم الذين يحمونها، وهم أصحاب المراكب والخمارات كانوا يستحقون إكرامها لو

لم تكن عاهرة" <sup>10</sup> "يا رياح الغابة، يا نسماقي، مري على خمارات المدينة ومقاهيها وقولي لهم هناك أن يسفحوا بعض الخمر على الأرض ... " <sup>11</sup> فهو يحمل رياح الغابة رسائل إلى مدينته التي تعيش في وجدانه ، فالدلالة التعبيرية للمكان كما تتجلى من خلال المظهر الخارجي سواء كان بيتا أو مقهى أو مسجدا أو مدرسة أو أي مكان آخر، فكذلك ترتبط بمظاهر أخرى نتلقاها بحواسنا كالصوت و الرائحة و الصورة ، فهذه المظاهر تستثير فينا ذاكرة المكان وتعيدنا إلى الزمن الذي عايشناها فيه، " أن يدعو القهوة على النار تفور واحملي في هبوبك رائحة النبيذ والبن المحروق ولئن عدت يوما إلى المدينة، حرا كما كنت، طليقا كالصيادين، فلسوف أنثر في الريح، على شرف الريح ،لأجل الذين تحب عليهم ،أقداحا كل يوم .سأدع القهوة تفور ،والرائحة البنية تنتشر." <sup>12</sup> .

كما ارتبطت المدينة عند حنا مينه بالاغتراب فقد أحس بالغربة وهو فيها، وأحس بها وهو بعيد عنها، والاغتراب كونه مصطلحا يشير إلى "عدم التوافق بين الماهية والوجود، وهو نقص وتشويه وانزياح عن الموضع الصحيح" <sup>13</sup> وقد نجد عند بعضهم أن "مفهوم الاغتراب يركز على حقيقة أن وجود الإنسان مغترب عن جوهره الإنساني، وعلى أنه في الحقيقة ليس هو ما هو كامن فيه، أي ليس ما يجب أن يكونه، إن الاغتراب يعني أن الإنسان لا يمارس ذاته كقوة فعالة في العالم، بل كون العالم مازال مغتربا، بالنسبة للإنسان" <sup>14</sup> ، ويظهر الاغتراب في أبسط تعريفاته عند عبد الوهاب المسيري إذ يعرفه بأنه: "إحساس الفرد بالعجز وشعوره بأنه غير قادر على التأثير في المواقف الاجتماعية المحيطة به" <sup>15</sup> ، فزكريا -الشخصية المحورية في الرواية- اضطر للهروب من مدينته وحبسه لأنه لم يستطع التغيير والتأثير، ترك مدينته هروبا من سخرية من فيها، متجها باتجاه البحر بحثا عن نفسه وعن تحقيق ذاته بعيدا عنها. وبين طوباوية الغابة وواقعية المدينة وإكراهاتها ،ومنزلتها في قلب زكريا، يبني السارد عالمه المحكوم بمحادثة الحوت التي افتتحت النص وكانت سبب هروب زكريا من المدينة ، كما مثلت سبب عودته إلى المدينة في آخر النص "ويا شكية قلت لها ،الذين هناك في مدينتي نسوني ،كنت صيادا ماهرا ونسوني ،وكنت بحارا شجاعا ونسوني .....وأخذك معي إلى البحر." <sup>16</sup>

ويضيق حنا مينه إطار المدينة نوعا ما متجها نحو خمارتها التي كانت فيها نقطة التغيير في مسرى الأحداث فوردت عنده كمفترق بين المدينة والغابة، وخرج منها "من زقاق يؤدي إلى البحر عبر مستودعات الأخشاب" <sup>17</sup> والزقاق بمعنى الشارع الضيق يرمز إلى تقارب سكان المدينة ودنوتهم من بعض والزقاق المؤدي على البحر يرمز إلى اشتراكهم في المأوى والملجأ الواحد بينهم وهو البحر. كما أن للبحر عند مينه دلالات أخرى تتجاوز الوصف الخارجي بل هو صديقه الذي يناجيه ويث له اسراره ،هو الماء الذي يطهره من أدران الخطيئة "ليس من صديق إلا البحر هو وحده الذي يقبلي ويعرف سريري ويقدر أن يغسلني من خطيئتي." <sup>18</sup>

وكما وردت عند مينه مدن أخرى غير اسكندرونه "كبيروت" عاصمة لبنان، وتركيا واليونان وزحلة وورد عنده ذكر قرية "أشقر ضاغ" وهي قرية جبلية تركية جاءت منها حبيبة زكريا "شكية". ولكن لم يكن لها الأهمية نفسها التي صنعت الأحداث في المتن الروائي ، وإنما تأتي عرضا من خلال السارد لارتباطها بشخصية معينة يستدعي ذكرها. ثانيا الغابة:

وهي الفضاء الذي تردد في رواية حنا مينه بكثرة لأن الغابة تتشابه تضاريسها مع تضاريس النص الأدبي كلاهما يحوي الكثير من المفارقات والأسرار التي لا تنكشف إلا بالاستئناس بهما وفهم مقاصدهما وتفكيك بنيتهما ،وقد تحدث الكثير من الادباء عن التداخل بين عالمي الغابة والأدب مثل (أمبرتو إيكو) في كتابه (ست نزاهات في غابة السرد) حي يستعير من الغابة المفهوم المنفتح على العالم والمغلق في الوقت نفسه، كما نجد كتابا آخرين يعتبرونها مكانا لا ينبغي للفنان أن يهرب منه وإنما

عليه، " أن يظل على العكس من ذلك تماما المكان الذي يتحتم عليه الإقامة فيه لكي يتعرف إلى جميع تفاصيله ويستثمر كل درب من دروبه، ويعطي لكل شجرة من أشجاره اسمها الخاص، ولا يغفل عن توصيفه بأنه ليس دائما بالمقام المريح"<sup>19</sup>، ونجد علاقة واضحة بين المكان الذي جعله إطارا لروايته (الغابة) وبين ما يشير إليه من رمزية " أي أنه يربط بين العالم التخيلي للرواية والعالم الواقعي، وفق المثلث الدلالي الذي وضعه "أوجدن" و "ريتشاردز" في كتابهما "معنى المعنى"<sup>20</sup>.

جعل حنا مينه الغابة في روايته تكتسب سياقاً نفسياً واجتماعياً جديداً مختلفاً تمام الاختلاف عن سياقها المدلولي القديم، ذلك النسق اللغوي الاجتماعي الذي كان ينظر إلى الغابة على أنها مكان رهب يخوف بها الأطفال وحتى الكبار لما ارتبطت بأذهانهم من قصص وحوادث غريبة، وعلى أنها مأوى الغول والجان ومخلوقات وحشية، أصبحت بالنسبة لتركيبا حضنا حانيا وملاذاً آمناً من وحشية البشر يصفها وكأنه يصف امرأة يحبها: "كانت الغابة ذات خضرة رصاصية، وفي الوديان خربير المياه، وعلى الأرض تحت قدمي الحافيتين، تتكسر إبر الصنوبر ورائحة رطوبة وعفونة تهب علي، وحول جذوع الأشجار الهرمة ينبت العشب، والفطر..."<sup>21</sup> وأسهب في وصف أشعة الشمس التي تطل عليها متخللة أغصان الأشجار، تنكسر على جذوعها في صورة بديعة تتفاعل مع وجدان الشاعر، ورصده لحركة الطيور وحركتها داخل الغابة كلها تدل على عشقه للمكان وارتباطه به "... رفاق شمسية، متفرقة متداخلة، مستديرة مفرقة، تتكاثر على الأرضية العشبية للغابة، وتتفرق على الأدغال وأطراف الصخور، وعصافير تنطير، تفرق، وغراب أسود، ثم آخر، يرتفعان في الجو، يغادران الغابة وأن كذلك أغادها... ولم أعر على مخلوق..."<sup>22</sup> تلك الغابة، المكان الذي سحره وأنساه كل شيء عن نفسه "...نسيت لما أتيت وسحرتني اكتشاف هذه المجاهل..."<sup>23</sup> ويصف الغابة مركزاً على الأشجار واللون الأخضر لأوراقها وهو رمز متعدد المعاني، " فهي توحى بالخضرة والنماء كما توحى بالانغماس الثابت في عمق الأرض، وفي شعائها وفوق تلالها، وعلى سهولها وبين صخورها"<sup>24</sup>.

وشأن الغابة بأشجارها وأدغالها، شأن أهلها فحالم من حالم، لذا كانت خضرتها رمزاً لآمال زكريا، وطموحاته في حياة رغيدة بعيداً عن صخب المدينة وتعبها، فقد هرب إليها طالباً الأمان والراحة فيقول مناجياً سنجاباً لقيه في الغابة: "... لا تخافي يا جيري أنا أنت من يطلب الأمان..."<sup>25</sup> ذلك الأمان الذي افتقده في المدينة وبحث عنه في البحر ولقيه في الغابة، وهذا ما نلمسه في قوله: "تجولت في الغابة حتى أنساني التجوال همومي، كانت الريح قوساً على الأغصان ذات الغبر، تحتك وتولد همساً رخيماً، السكينة، والنداء، نداء مجهول لا يقوى الإنسان على مغالبته، سقط الظل في نفسي هدأت مثل الغابة، ومثلها انتعشت بالطرقة ولأول مرة منذ يومين استشعرت راحة نفسي ... حسدت الحراس والخطابين والزواحف وطيور الغابة ووحوشها"<sup>26</sup>.

من خلال هذه الأوصاف الواضحة بجلال، يمكننا أن نتخيل مشهداً وصفياً للغابة، وكأننا نحمل ريشة ونبدأ بالرسم، وقد تتصور لها مشهداً ماثلاً في واقعنا لطالما رأيناه، مضافاً إليها قيمة جديدة كدلالة على امتياز ثقافي وحتى تقديس روحاني لهذه الغابة التي صارت رمزاً للهدوء والراحة والصفاء، والتي يبدو زكريا فيها وكأنه ولد من جديد، فيقول "...وعاودني الأمل، وعزت علي الحياة، وصارت غالية وجميلة..." تراءت لي الغابة كصديقة أليفة كانت خضراء ظليلة..."<sup>27</sup>، وأصبح يفكر في استئناف حياة جديدة من خلال سؤاله الذي لن يتوان في ترديده على طول الرواية: "... ترى فات الأوان؟ بعد الأربعين هل نستطيع أن نبدأ من جديد كما في الشباب..."<sup>28</sup>، البدء في الغابة بعيداً عن المدينة وعن الناس تلك الغابة التي كان يرى وكأنها: "دير شجري كبير رصاصي داكن، مريح، يبعث عن النعاس والنوم الطويل، خارج العالم، خارج المتاعب و الأفكار، وبين أذرع السكينة العميقة"<sup>29</sup>.

وبجدية فكر في الاستقرار بها في الهدوء والصفاء الذي كانت ترمز إليه الغابة ، ثم نجده يصغر المساحة والفضاء شيئاً فشيئاً فينقلنا من فسحة المدينة وفضاءاتها المفتوحة إلى خيمته التي مثلت له البيت والملجأ والسكنية في أحلك الظروف وأصعب المواقف تلك الخيمة التي جمع "أغصانها من الغابة وبأوراق القصب"<sup>30</sup> ربطها ولملم كومة من القش وفرشها على صخرة، وذلك البيت الجميل المريح فيقول فيها: "بلغت الخيمة ودخلتها كمن يدخل بيتاً هجره طويلاً، لم أفتح النوافذ ولا مسحت الغبار، وعلى السرير لم أستلق أو أذهب إلى المطبخ لأعد فنجاناً من القهوة، كانت خيمتي وكرا وكنت كالحیوان المنسحب أعياء إلى وكره وهو ينظر باتجاه الباب، في توقع للخطر المترص بالمدخل"<sup>31</sup> وعلى الرغم من أنها كانت مجرد خيمة لا تحمي من في داخلها مما في الخارج، إلا أنها تحمل رمزا للأمان والملجأ الذي يرد كل المعتدين وكل الأخطار، فقدمت له الراحة والعزاء والأمان وتمنى لو أنه صنع منها بيتاً حقيقياً بعد وصفها لنا بدقة: "وجدت راحة وعزاء، كانت الخيمة بيتي على كل حال، كانت صغيرة، مستطيلة، فارغة، كئيبية، ولكنها كانت بيتي، أحسست بالألفة والطمأنينة كأني عائد من سفر بعيد وفكرت توا بتقصيري، كان ملتي أن أفرش أرض الخيمة بالعشب أن أضع على سقفها وجوانبها مزيداً من الأغصان المورقة، ومن أصداف البحر أشك قلائد أعلقها على الجدران، وأتى من الغابة بقطعه جذع أجعلها كرسيًا، وأضفر الأغصان طاولة صغيرة ....أزين خيمتي ... ثم، ذات يوم حين أحصل على منشار ومسامير وعدة أقطع ألواناً من الخشب وأصنع فلوكة..."<sup>32</sup> وتصبح الغابة عند حنا مينه هي الملجأ من قسوة المدينة التي لا تذكره إلا بالضيق والدونية، تصبح خزان أسرار ومغامراته مع شكيبة يرفض أن يهجرها ويعود إلى المدينة العاهرة، ويبنى حياته الجديدة مع رفيقته الغابة التي أصبحت هي الأخرى عنده معادلاً موضوعياً للمرأة، ويجعل منها صاحبة رفيقة وحتى زوجة "يا غابتي، يا رفيقتي أنت بيتي وفي الأخير قبري لن أهجرك وارجع مدينتي العاهرة، صحيح أنا كهمل ولكني قوي، حدي ماتت زوجته في مثل سني فتزوج وبني عائلة من زوجته الجديدة... ومثل حدي بعد زوجته الأولى، أبدأ من جديد بزوجة جديدة الغابة زوجتي، ومعها أعيش..."<sup>33</sup>.

ولم يقتصر وصفه للغابة على اعتبارها رمزا للخلاص وتجديداً لفضائها كمكان روحاني يلجأ إليه إذا مضات به الحياة وأطبقت عليه الهموم والهواجس، بل وظف الغابة لتكسير العادات والتقاليد ونحويلها من مكان فحش إلى مكان طهارة وتوبة "خذيني إليك اغسليني من خطاياي، تقبلي توبتي... تقبليها..."<sup>34</sup> إذا مثلما الغابة مأوى له من قسوة الطبيعة، هي كذلك ملاذ نفسي من وحشية المدينة وطهارة من أدران النفس وخطاياها.

ثالثاً - البحر

عندما ظهرت الرواية في الوطن العربي اتخذت مجالات متعددة في التعبير عن قضايا الإنسان وهمومه، كما اتخذت أشكالاً فنية مختلفة في التعبير عن هذه القضايا، وعرف الروائيون العرب كل بطريقته وأسلوبه في الكتابة، وبالأشكال الفنية التي تميز منه الروائي عن غيره من الروائيين الآخرين، كما ارتبطت كتابات بعض الروائيين برموز ومظاهر طبيعية انطبع بها أدهم كروايات البحر عند حنا مينه، فلا يذكر البحر في مجال الكتابة الروائية وبخاصة الروائيين العرب إلا ويذكر حنا مينه، وكأنهما ولدا معا من رحم الساحل السوري لبيدعا أدبا خالدا في الزمان، فقد أغرت عوالم البحر الروائيين العرب وعلى رأسهم روائي البحر حنا مينه صاحب (الياطر) و(الشراع والعاصفة) و(ثلاثية حكاية بحار) وغيرها، فالبحر رمز للغموض والمغامرة والمجهول، وباعتباره موضوعاً قائماً بنفسه لم يتحقق إلا مع مينه في أكثر من رواية، وهذا لا يعني أن غيره من الكتاب لم يقتحموا عالم البحر، ولكن طريقة التناول تختلف من واحد إلى آخر باختلاف الرؤى إلى العالم وتنقضاته، كما أن تعاملهم معه لم يكن في مستوى واحد بالنظر إلى تكوينهم الاجتماعي ومرجعيتهم الأيديولوجية يقول حنا مينه: "اكتشفت أن البحر وعالمه مجهولان بالنسبة للقارئ العربي"<sup>35</sup> فالبحر في روايات حنا مينه "سيد الحياة والموت والمشكل لحضارة الساحل السوري، وفضاء للرؤية

الفنية المتشعبة<sup>36</sup> فهو فضاء الدهول والخوف يقول واكيم استور في تقديمه لرواية الدقل أن البحر: "ميدان اختاره حنا لأنه الموجة الأصخب والأغنى وهو كتابة ورمز، رمز الحياة كلها وميدان لكل الصراعات"<sup>37</sup>، ويقول حنا مينا عن البحر الذي عشقه وسكن وجدانه وأصبح مصدر إلهامه، "أن البحر كان دائما مصدر الهامي حتى أن معظم أعمالي مبجلة بمياه موجه الصاحب.... فلحمني سمك البحر ودمي ماؤه المالح، وصراعي مع القروش كان صراع حياة، أما العواصف فقد نقشت وشمًا على جلدي إذا نادوا يا بحر، الأدباء أكثرهم لم يكتبوا على البحر لأنهم خافوا معاينة الموت في جبهة الموج الصاحب"<sup>38</sup>.

وتعلقه بالبحر وحب له جعله يحب كل مافيه من مخلوقات ويرثي لحالها، فقد أصبحت تقاسمه الغربة والموت "نقل حوتي المسكين إلى فرنسا في البحر، في نفس الطرق التي جاء منها، ولكنه في العودة كان جثة في براد"<sup>39</sup>. وكان السمك صديقه الوحيد في البحر، "الحوت الطائر هو صديقي الوحيد في المحيط"<sup>40</sup>. أما صديق مينه فهو البحر في حد ذاته "وليس لي صديق إلا البحر، هو وحده الذي يقبلني ويعرف سريري، ويقدر أن يغسلني من خطيئتي"<sup>41</sup>.

و الصورة نفسها يسهب في رسمها مينه فيقول "كان البحر هادئا شفافا، وموجات رفاق ذات زيد أبيض ناعم كالتخاريم تنكسر على الشاطئ، وعند الأفق حيث الزرقة الداكنة"<sup>42</sup>.

ويقول في لقاءات كثيرة أنه إذا اردتم معرفة البحر، فابحثوا عنه في رواياتي لا في الأدب العربي القديم أو في الأدب العربي الحديث، فليس فيهما أدب البحر، معي وحدي كان البحر بحرا، لذا أسموني أديب البحر، وهو بحق أديب البحر بلا منازع وقد صورته في أجمل الصور وأعطى له أجمل الصفات، وكان يناديه ويناجيه كلما ضاقت به الحياة "يا بحر يا بحر، يا صاحبي أنت تعرف مخنتي ساعدني لا تكن بخيلا، الصديق وقت الضيق، وأنت صديقي لم يبق لي صديق إلاك، أهل مدينتي نسوني... سأبقى معك يا حبيبي ورفيق عمري"<sup>43</sup>.

ذلك الحبيب (البحر) يحن إليه ويشتاق، ويؤانسه في اللقاء، يرحب به كما يرحب الجرو بصاحبه حينما يغيب عنه، البحر أصبح كائنا حيا يشتاق ويداعب ويتشمم "نزلت الماء فهرع إلي مشتاقا راح الموج يلحس ساقي يتشممهما يشرب إلى ما فوق الركبتين، كجرو يرحب بصاحبه. غمست يدي بالزبد أداعبه، مهلا، فلت، مهلا، مهلا، أضعي إلي..... خزانتي على ظهري. بيتي على ظهري لأملك شيئا. لو تقبلني، ضيفا عليك، في أعماقك، بين صخورك وكهوفك، بين اشجارك وحدائقك..."<sup>44</sup>.

ويتماهي البحر مع المرأة عند حنا مينه في العلاقة الحميمة، فزكريا المرسلني بطل رواية الياطر يحمل للبحر تلك الصورة الجنسية اللذيذة، إذ يعني البحر له الاستثارة والجسد المشتته، فحين يعرض حنا مينه صورة تلك المرأة التركمانية التي تركها زوجها فريسة للوحدة بعد أن ذهب للأناضول، يبدو جسد المرأة عند البحر أشهى لدى زكريا من الفعل الجنسي نفسه "أما أنا فقد خرجت جنيتي من الغابة دافئة وشبقة إلى حد الصرع وقد كانت معي، بين أحضاني ولكنني لم أكن أقتنع بفتنة جسدها كما تمتعت وهي على الشاطئ تغوص، كما قرص الشمس في الماء وتختلف عنها أنما بيضاء حليبية في ضوء القمر"<sup>45</sup>.

فمياه البحر ترمز دائما إلى الحياة والخصب، وعشق كل من عجوز همنغواي، وزكريا مينه للبحر إنما هو عشق للحياة وللحياة كان العجوز يعشق البحر، كان العجوز يعشق الحياة، كان العجوز يعشق الدنيا، وكان دائما يرى البحر أنثى تنفج الحياة بالمنح العظيمة، إننا لم نذهب بعيدا عندما أوضحنا أن البحر يرمز إلى الرحم، إن العجوز يرى في البحر امرأة كاملة، وليس رحما فقط، وإذا ادركنا أن الدنيا بمياهها وبابسها يرمز إليها بالمرأة في اللهجة العامية المصرية، ويصبح من السهل علينا أن نقول إن البحر يرمز إلى العالم بأسره أو إلى الحياة على هذا العالم"<sup>46</sup>.

ويقول حنا مينة في حوار أجراه معه عمر خطاب: "أحببت البحر إلى حد الجنون أحبني هو أيضا وفي لجته تعمدت لا في نحر الأردن وأمام مداه اللا متناه، أقف متأملا خاشعا، إلى ما وراء الأفق حيث تشرق الشمس أو تغيب، كل صباح، وكل مساء تداعبني أمنية أن أرحل على متنه فوق طوافة من خشب تأخذني بعيدا بعيدا إلى عوالم مجهولة قد لا أعود منها أبدا" <sup>47</sup>. وقد كان جل ما يتمنى أن ينتقل البحر إلى دمشق أو تنتقل دمشق إلى البحر وهي دلالة على مدى تعلق مينة بالبحر وامتزاجه بدمه، يتمنى أن يصاحبه في حله وترحاله هو مسكون بحب البحر "أمنيقي الدائمة أن تنتقل دمشق إلى البحر أو ينتقل البحر إلى دمشق، أليس هذا حلما جميلا" <sup>48</sup>.

كان البحر عنصرا أساسيا وهاما في تأطير فلسفة حنا مينة في صياغة المواضيع والأفكار في أغلب أعماله، لا سيما وأنه قد عايش البحر والميناء عاملا، وذاق الفقر والتشرد وعانى قسوة الحياة ومشاقها في بداية حياته، واستطاع أن ينتزع لقب أديب البحر بجدارة، حيث طرق مواضيع لم يطرقها غيره في عالم الرواية العربية، فكان أسلوبه مميزا ولغته تفوح منها رائحة الملح والسمك وتضج بأصوات الأمواج الصاخبة.

الخلاصة أن المكان في رواية الياطر لحنا مينة ليس مجرد خلفية لأحداث الرواية بل هو الإطار الذي تتحدد من خلاله شخوص الرواية، فلا شخصية تتحدد ملامحها خارج المكان، ولا أحداث تتحرك خارجه، فالشخصيات تنمو وتتطور داخل الحيز المكاني، والمكان بتنوعه في الرواية كان ملتحما بشخصياته وأسهم الى حد كبير في رسم ملامحها. كما أن البحر قد أخذ حيزا كبيرا من المتن الروائي عند حنا مينة وذلك لموقع الأسكندرونة على الساحل السوري، ولاشتغاله بالميناء في فترة طفولته ومراهقته حمالا، كما ارتبط بمغامراته العاطفية مع شكية حيث توحدت عنده في عشق أسطوري حتى أنه شبهها بجنية البحر. وبالدرجة الثانية تأتي الغابة ملاذاً يحتتمي به من ظلم الناس وتناغم وحشته مع وحشتها حتى، فالمدينة التي كانت بالنسبة إليه كابوسا لا يجد خلاصا منه إلا في الغابة أو البحر.

## الهوامش

- 1- مصطفى الضبع، استراتيجية المكان، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، أكتوبر 1998 ص 151.
- 2- بن ستيقي سعدية: الفضاء الحكائي في رواية الطاهر وطار "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" محاضرات الملتقى الوطني الرابع - السيمياء والنص الأدبي - جامعة محمد خيضر، بسكرة، نوفمبر 2006، ص 299.
- 3- حميد الحماداني: بنية النص السردي، ط1، البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، 1991 ص 70.
- 4- المرجع السابق، ص 66.
- 5- معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان، بيروت 1983 ص 539/538.
- 6- حميد الحماداني بنية النص السردي، ص 67.
- مدينة سورية ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط، تقع في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في شمال غرب سوريا.
- تأسست سنة 333 ق.م استولت عليها تركيا عام 1939.
- 7- حنا مينا: الياطر، ط 3، دار الآداب، بيروت، 1984، ص 174.
- 8- المصدر السابق ص. 28.
- 9- محمد الصالح خريفي: سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف، محاضرات الملتقى الوطني الثاني - السيمياء والنص الأدبي - منشورات جامعة خيضر بسكرة أبريل 2002، ص 295.
- 10- حنا مينا، الياطر، ص 115.
- 11- المصدر نفسه، ص 53.
- 12- المصدر نفسه ص 53.
- 13- عبد الوهاب المسيري: في الأدب والفكر، ج1، ط1، مكتبة الشروق الدولية، 2007، ص 142.
- 14- فيصل عباس: الاغتراب (الإنسان المعاصر وشقاء الوعي)، ط1، دار المنهل اللبناني بيروت، 2008، ص 10، 11.
- 15- عبد الوهاب المسيري: في الفكر والأدب، ج1، ص 142.
- 16- حنا مينا، الياطر، ص 172.
- 17- المصدر نفسه، ص 28.
- 18- المصدر نفسه، ص 29.
- 19- انظر هيثم حسين، صحيفة العرب، 15 سبتمبر 2014، لندن، العدد 9680، ص 15.
- 20- بن ستيقي سعدية: الفضاء الحكائي في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي، ص 306.
- 21- حنا مينا: الياطر، ص 36.
- 22- المصدر نفسه: ص 37.
- 23- المصدر نفسه، ص 36.
- 24- عبد القادر الرباعي: جماليات المعنى الشعري، ط1، دار جرير، الأردن ص 190.
- 25- حنا مينا: الياطر، ص 36.
- 26- المصدر نفسه: ص 64.
- 27- المصدر نفسه، ص 162.
- 28- المصدر السابق ص 163.
- 29- المصدر نفسه ص 64.

- 30 - المصدر نفسه ص 31.
- 31 - المصدر نفسه ص 175.
- 32 - المصدر نفسه ص 175.
- 33 - المصدر نفسه ص 178.
- 34 - المصدر السابق، ص 177.
- 35 - ميمون حرش، حنا مينه روائي البحر، ملف حنا مينه، مجلة كفريو الثقافية، سوريا العدد 29 إيار 2014. بدون ترقيم.
- 36 - صالح إبراهيم، الفضاء ولغة السرد، في روايات عبد الرحمان منيف، ط1، المركز الثقافي العربي، 2003 الدار البيضاء - ص 20.
- 37 - جمانة محمد نايف الديلمي، تطور أدب الرواية في سوريا، ملف حنا مينه، مجلة كفريو الثقافية، سوريا العدد 29 إيار 2014 بدون ترقيم.
- 38 - المرجع نفسه.
- 39 - حنا مينه: الياطر، ص 10.
- 40 - المصدر السابق: ص 4.
- 41 - المصدر نفسه، ص 29.
- 42 - المصدر نفسه، ص 30.
- 43 - المصدر نفسه: ص 90.
- 44 - المصدر نفسه، ص 92.
- 45 - المصدر نفسه، ص 274، 275.
- 46 - مكرم شاكر اسكندر، ادباء منتحرون، دارالراتب الجامعية، بيروت، 1992، ص 152.
- 47 - ماجد رشيد العويد، حوار مع الروائي العربي حنا مينه، 14 نيسان 2002
- [www.m.ahewar.org](http://www.m.ahewar.org) يوم 2017/3/12. سا 14
- 48 - جمانة محمد نايف الديلمي، تطور أدب الرواية في سوريا، ملف حنا مينه، مجلة كفريو الثقافية، سوريا العدد 29 إيار 2014